قريتي مُنذ ستين سنة
(صُورَة من الذاكِرَة)

ترتد حياة الشيوخ إلى الماضي حين تصطدم بالنهاية، فهم يعيشون بالذكرى، وتندفع حياة الشباب إلى المستقبل حين تنطلق من البداية، فهم يعيشون بالأمل، فالعيش في الشيخوخة اجْتِرار[1] ومن لوازم الاجترار التفكر والتأمل، والعيش في الشبيبة أكل، ومن لوازم الأكل الاستمراء[2] والتذوق.

فأنا حين ألتفت بقلبي إلى ذكريات الطفولة ومسرات الحداثة أطاوع هذه النزعة الطبيعية في كل شيخ. ولا أقصد ما يقصده أصحاب الحاضر الفارغ حين يجدون أنفسهم عاجزين عن مجاراة العصر في تنعمه وتقدمه فيقولون في حسرة نفس وهزة رأس: " والله كان زمان ! ".

إن حياة القرية التي أصور لك جانبًا من جوانبها في هذا الحديث لا يُقاس بحياتها التي تحياها اليوم، لا في اتصالها الوثيق بالشعور العام، ولا في إدراكها الصحيح للوطن المشترك، ولا في تأثرها المباشر بالحضارة الحديثة، ولا في تمتعها النسبي بالعيش الناعم.

كانت حين فتحت عيني على الدنيا وحدة من الناس والأرض لا يربطها بالعالم الخارجي إلا سبب ضعيف من الإدارة أو التجارة. كان لا يدخلها على أهلها إلا مفتش الصحة كلما فشت الحمى فيأمرهم بالكنس والرش وتبييض الجدران ثم يذهب ولا يعود إلا مع الوباء. فإذا أقبل شهر أكتوبر من كل عام أقبل عليهم تجار القطن من الأروام إقبال الربيع، فتمتلئ الأيدي بأعواد القصب والبرتقال والبلح، وتشرق دور العرسان باللعب واللهو والمرح.

---

(1) قلت: اجترار: أي تكرار وإعادة، **اجترَّ** الكلامَ : كرَّره ، أعاده مرّات من غير الإتيان بشيء جديد يجترّ أفكار السابقين. مَا جَاءَ فِي كَلاَمِهِ مُجَرَّدُ اجْتِرَارٍ : إِعَادَةُ الكَلاَمِ نَفْسِهِ فِي كلِّ مَرَّةٍ.

(2) قلت: استمرأ الطَّعامَ وغيرَه : وجده مقبولاً مستساغًا ، استطابه.

أما قرية اليوم فقد غدت بفضل السيارة واتساع الحضارة ضاحية من ضواحي المدينة تنعم بما تنعم به من طيبات الرزق ومرفهات المدنية، ولكن هل استطاعت بأغاني الإذاعة وملاهي السينما وأحاديث المقاهي أن تنعم بما كانت تنعم به قرية الأمس من سعادة النفس وسلامة القلب وهدوء البال؟ ذلك ما أشك فيه.

من الصور التي لا تزال عالقة بذاكرتي من صور القرية القديمة صورة العرس، وهي إحدى الصور التي محاها أو شوهها التطور الاجتماعي الحديث. ومن الخير أن تسجل أصلها في محفوظات الفن وسجلات التاريخ.

كانت الأعراس في الريف، تُقام غالبًا في الخريف بعد أن يستبدل القرويون الذهب الأصفر وهو الجنية بالذهب الأبيض وهو القطن، فتدور الطاحونة على قمح الوليمة، ويجتمع النساء في دار العرس يغربلن ما يحمل إليها، وينخلن ما ينقل منها، وهن يغنين الأغاني التقليدية بأنغام ساذجة ممدودة يستوي في أدائها الصوت الحسن والصوت المنكر.

فإذا أقبل المساء أوقدت الفوانيس وغصت الدار والساحة بالشباب والكهول لا يتخلف منهم إلا الشيخ الفاني والمريض الموجَع، فبعضهم يلعبون الصينية وهي لا تلعب إلا في الأعراس إذ يفترق اللاعبون فرقتين ثم يأتون بصينية القهوة ويصفون الفناجيل على شكل دائري، ثم يخبئ رئيس الفرقة البادئة خاتمًا تحت فنجال من الفناجيل ويطلب من الفرقة الأخرى كشفه بالتخمين، فإذا كشفه هو أو أحد رفاقه انتقلت الصينية إليهما، ولهم في الربح أو الخسارة اتفاق يحدث من تنفيذه كركرة وتصفيق وهتاف يشيع في الدار الأنس والبهجة.

أما الآخرون فبعضهم يجتمعون على الزمر بالأرغول أو الناي، والنقر على الطبلة أو على الطست، وبعضهم يتحلقون حول شاعر ينشد أو قصاص يحكي، وتظل القرية على هذه الحال، حتى إذا لم يبق على يوم الزفاف إلا أربعة أيام ذهب نفر من أهل التجربة إلى البندر فقاولوا الطبال والفراش والطاهي وقضوا لكل منهم حاجة عمله.

وفي ضحى اليوم السابق ليوم العرس يسيل طريق القرية بالحمير والجمال تحمل هؤلاء وما معهم من فراش وآلة، فإذا بلغوا مدخل البلدة نزل الطبالون فنقروا على الطبول ونفخوا في المزامير ودخلوها في موكب من الناس عظيم.

وأول ما كان يعمل صاحب الطبل أن يخرج من الفرقة طبالاً وزمارًا ومهرِّجًا ليجمعوا من الدور الخرق والأطباق والقدور، فكانوا يسيرون في الأزقة وعن يمينهم كاتب وقلم، وعن يسارهم حمار وكيس، ومن حولهم حشد حاشد من الأطفال يساعدون النقر والزمر بالصياح والجلبة، فيكون من ذلك كله افتتاح طنان لمهرجان الفرح، كانوا يقفون على كل دار ريثما تخرج إليهم صاحبتهما بالخرقة فيضعها صاحب الحمار في الكيس، أو بالطبق فيكتب صاحب القلم على ظاهره اسم المرأة، فإذا رجعوا أخذ الطاهي القدور ليركبهما على الوجاق[1]، والأطباق ليملأها بقمر الدين، وانفرد مهرج الطبل بكومة الخرق البالية ليلفها طبقات على جرائد النخل أو على أعواد القطن، ثم يشد كل منهما بالخيط حتى تتجمع، ثم يغمسها بالزيت حتى تتشبع. وهذه هي المشاعل التي تستضيء بها زفة العريس بالليل.

ها هم أولاء في عصر ذلك اليوم وقد نُصب السُّرادِق وصُفت الدكك، وتربع فوقها القوم وأدخل أبو سعد في فمه المزمار، وأقبل المزين يحمل حقيبته ويجلس في وسط السرادق على حصير، فيهيئ العدة ويضع بجانبه الطاسة التي يبل بمائها الشعر، ثم يأتي العريس والصبيان الذين سيزفون زفة الختان من إخوته فيجلسون بين يديه فيجري موساه على رؤوسهم بأشكال من النقش والزينة تختلف في رأس العريس عنهما في نواصي المطهرين.

وفي أثناء ذلك تقرع الطبول وترجَّع المزامير وتجلجل الزغاريد وتتساقط قطع النقود في طاسة المزين، ثم ينصرفون إلى داخل الدار ويلحق بهم الحلاق فيغسل أجسادهم بالصابون ويخضب أطرافهم بالحناء.

---

(1) قلت: أوجاق (بالتركية الحديثة: ocak، ومعناها الأصلي: الموقد، ثم عُربت إلى وجاق).

ثم ينتقل الحفل إلى دار العروس فتفعل الماشطة بها ما فعله المزين بالعريس، وبيت العروسان ساهرين على كرسيين لا يبسطان يدًا ولا يحركان قدمًا ومن حولهما الأقارب والأصحاب يغنون ويرقصون ويسمرون حتى مطلع الفجر، فإذا صلى الناس العصر من يوم الزفاف أُقيمت في السُّرادِق حفلة كحفلة الأمس، وجاء العريس فوقف فوق إحدى الدكك، وأقبل المزين وفي يده صرة فيها ثياب الفرح من عمامة وجبة وقفطان وحزام وحذاء، فينزع عن العريس الواقف ثيابه القديمة قطعة قطعة، ثم يلبسه الجديدة قطعة قطعة، وكلما نَضَا[1] عنه ثوبًا وألبسه ثوبًا تغيرت دقة الطبل ونغمة المزمار وزغردة النسوة وقيمة النقوط حتى يأخذ زينته كاملة فيعود إنسانًا آخر عليه رواء الغواني وأبهة الملوك. وحينئذ يأتونه بفرس مُطَهَّم[2] فيستوي عليه، وقد يركبون العروس خلفه، أو يفردونها في محمل على جمل. ثم يسير موكب الزفاف يتقدمه هواة " البُرْجاس " ثم لاعبو " الحطب " ثم فرقة الطبل، ثو هودج العروس، ثم المطهرون يسندهم على صهوات الخيل بعض الشباب، ثم القرية كلها تغرق هؤلاء جميعًا في موج حي يصطفق بالسرور ويصطخب بالمرح، ويستمر الموكب دائرًا حول البلدة حتى يعود إلى حيث بدأ. وهنالك يحمل العريس عروسه على صدره بين الزغردة والتصفيق ورش الملح ويمشي بها متثاقلاً حتى يلقيها على السرير في غرفتها الخاصة. ثم يعود إليها في منتصف الليل بعد زفته الصاخبة فيغلق الباب ويؤدي مع الماشطة عملية جراحية من غير مخدر، فيعلو الصراخ في الداخل، ويغطي عليه زياط القوم في الخارج، حتى تخرج من غرفة العملية امرأة من أهل العروس تزغرد وهي ترفع بيديها شاشة بيضاء قد بقّعها الدم فيتهلل المنتظرون ويضجون بالأغنية المعروفة " بيضت الشاش يا عروسة ! ".

وفي تلك الهوسة يخرج العريس كالقذيفة هاربًا إلى الحقول في أثره الشباب الأعزاب، فإذا أدركوه تناولوه باللكم والقرص والعض وعادوا به داميًا كالعروس! وفي الصباح توزع الفطائر وبقايا الحلوى على كل من أعان أصحاب العروس بخدمة أو دابة

---

(1) قلت: نَضَا الثَّوْبَ عَنْهُ : خَلَعَهُ وَأَلْقَاهُ عَنْهُ ، نَزَعَهُ.

(2) قلت: جَوَادٌ مُطَهَّمٌ : مُكْتَمِلٌ ، تَامٌّ ، مُتَنَاهٍ فِي الرَّشَاقَةِ .

أو ماعون، بينما يكون الطبالون قد أخذوا يعملون الصباحية فينصب رئيسهم راية فوق السطح، ويخطب خطبة في الدهليز، ويشنق أم العريس بشال عمامته ولا يفك عنها إلا إذا فداها أبوها وأخوها بقدر من المال !.

تلك هي الخطوط المشخصة لعرس القرية القديمة رسمتها على أسلوب المقالة، ولو رسمتها على أسلوب القصة لكانت الألوان أزهى والظلال أدل والتفاصيل أكمل.